دار الوطن
١٣٠

حال السلف في الحج

خليليَّ قُطَّاعُ الفيافي إلى الحمى ... كثيرٌ وأما الواصلون قليلُ
وجوهٌ عليها للقبولِ علامة ... وليس على كلِّ الوجوه قَبولُ

إعداد
القسم العلمي بدار الوطن

خصم خاص للتوزيع الخيري

الرياض - ص.ب ٣٣١٠ - ت/٤٧٩٢٠٤٢ - ف/٤٧٢٣٩٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. . . **أما بعد:**

* **فإن** الحديث عن أحوال السلف في الحج حديثٌ عن عِلْمٍ قد درس مناره، ومُحِيَتْ آثاره، فلم يبق منه إلا بقايا من الرسوم والألفاظ، وأطلال من الجمل والعبارات، التي ما فتئ الناصحون يرددونها حثّاً للناس على التمسك بما كان عليه السلف، وترغيباً لهم في سلوك سبيلهم واقتفاء آثارهم. وإلا فأين نحن من القوم؟ كم بين اليقظة والنوم؟!

* **لقد** كان للحج تأثيرٌ عظيمٌ في تزكية النفوس وإصلاح القلوب، لما فيه من معاني العبودية، ومظاهر الربانية التي تجلّت في كل أعماله ومناسكه، فأثمرت في واقع السلف قلوباً تقية، وأفئدةً زكية، وأبداناً طاهرة نقية. فكانوا مع إحسانهم العمل يخشَوْن الردَّ وعدم القبول، أما نحن - إلا من رحم الله - فلا إحسان ولا خشية، ومع ذلك ينام أحدُنا ملءَ جفونه، وكأنه حاز النعيم، وضمن من الجنة فردوسها الأعلى!!

* **ولئن** ورد عن بعض السلف أنه قال: الركبُ كثيرٌ والحاجُّ قليل، فما عسانا نحن أن نقول؟! نسأل الله ألا يمقتنا.

* **فما** أحرانا - نحن المسلمين - أن نعود إلى ما كان عليه السلف الصالح؛ عقيدةً ومنهاجاً، عبادة وسلوكاً، حتى نفوز بما فازوا به من سعادة الدارين؛ العزِّ في الدنيا، والنعيم في الآخرة.

من أخلاق السلف في السفر والحج

* **كان السلف** - رحمهم الله - يعلمون حقَّ رفيق السفر، فيحسنون صحبته، ويواسونه بما تيسَّر لديهم من طعام وشراب، وكان كلُّ واحد منهم يريد أن يخدم أخاه ويقوم بأعماله، لا يمنعه من ذلك نسبٌ ولا شرفٌ ولا

مكانة عالية.

* **قال مجاهد رحمه الله:** صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه، فكان يخدمُني!!

* **وكانوا** - رحمهم الله - يبذلون أموالهم للرفقة، ويصبرون على الأذى، ويطيعون الله تعالى فيمن يعصيه فيهم.

* **يُروى** أن بُهَيماً العجليَّ ترافق مع رجلٍ تاجرٍ موسرٍ في الحج، فلما كان يوم خروجهم للسفر، بكى بُهَيمٌ حتى قطرت دموعه على صدره، وقال: ذكرت بهذه الرحلةِ الرحلةَ إلى الله، ثم علا صوته بالنحيب.

* **فكره** رفيقه التاجر منه ذلك، وخشي أن يتنغَّص عليه سَفَره معه بكثرة بكائه، فلما قدما من الحجّ، جاء الرجل الذي رافق بينهما إليهما ليسلِّم عليهما، فبدأ بالتاجر فسلَّم عليه، وسأله عن حاله مع بُهَيمٍ.

* **فقال له:** والله ما ظننتُ أن في هذا الخلقِ مثله؛ كان - والله - يتفضَّل عليَّ في النفقة، وهو مُعسرٌ وأنا موسر!! ويتفضل عليَّ في الخدمة، وهو شيخ ضعيف وأنا شابٌّ!! ويطبخ لي وهو صائم وأنا مفطر!!

* **ثم** خرج من عنده فدخل على بُهيم، فسلّم عليه، وقال له: كيف رأيت صاحبك؟ قال: خير صاحب، كثير الذكر لله، طويل التلاوة للقرآن، سريع الدمعة، متحملٌ لهفوات الرفيق، فجزاك الله عني خيراً.

* **وكان** كثير من السلف يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم اغتناماً لأجر ذلك، منهم عامر بن عبد قيس، وعمرو بن عتبة بن فرقد، مع اجتهادهما في العبادة.

* **وكان** ابن المبارك يُطعم أصحابه في الأسفار أطيب الطعام وهو صائم، وكان إذا أراد الحجَّ من بلده «مرو» جمع أصحابه وقال: من يريد منكم الحجَّ؟ فيأخذ منهم

نفقاتهم، فيضعها في صندوق ويغلقه، ثم يحملهم، وينفق عليهم أوسع النفقة، ويطعمهم أطيب الطعام، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من هدايا، ثم يرجع بهم إلىٰ بلده، فإذا وصلوا صنع لهم طعاماً، ثم جمعهم عليه، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فردَّ إلىٰ كل واحد نفقته!!

إلهي!!

إليك قصدي ربَّ البيت والأثر ... وفيك تطوافي بأركانٍ كذا حِجْر

صفا دمعي الصفا لي حين أعبرُه ... وزمزمي دمعة تجري من البصر

وفيك سَعْيي وتعميري ومزدلفي ... والهدي جسمي الذي يغني عن الجُزرِ

عِرْفانه عرفاتي إذ منىً مِنني ... وموقفي وقفةٌ في الخوفِ والحذرِ

وجَمْرُ قلبي جمارٌ نبذُه شَرَرٌ ... والحرمُ تحريمي الدنيا عن الفِكَرِ

ومسجد الخيف خوفي من تباعدكم ... ومشعري ومقامي دونكم خطري

زادي رجائي له والشوقُ راحلتي ... والماءُ من عَبَراتي والهوى سقري

حال السلف عند الإحرام والتلبية

* **أخي الحبيب:** كان السلف يستشعرون معنىٰ الإحرام، فهو يعني عندهم الانخلاع من جميع الشهوات الأرضية، والتوجه بالروح والبدن إلىٰ خالق السموات والأرض. لذلك فقد كانوا يضطربون عند الإحرام، فتتغير ألوانهم، وترتعد فرائصهم خوفاً من عدم القبول.

* **فكان** أنس بن مالك رضي الله عنه إذا أحرم لم يتكلم في شيء من أمر الدنيا حتىٰ يتحلل من إحرامه.

* **وهذا** عليُّ بنُ الحسين رضي الله عنه لما أحرم واستوت به راحلته اصفرَّ لونه وارتعد، ولم يستطع أن يلبي، فقيل له: ما لك؟ فقال: أخشىٰ أن يقول لي: لا لبيك ولا سعديك!

* **ولما** حجَّ جعفر الصادق، فأراد أن يلبي، تغيَّر وجهه، فقيل له: ما لك يا ابن رسول الله ﷺ؟ فقال: أريد أن ألبي وأخاف أن أسمع غير الجواب!!

* **وكان** شريح - رحمه الله - إذا أحرم كأنه حيَّة صماء

من كثرة الصمت والتأمل والإطراق لله عز وجل.

* **ولئن** كان كثير من حجاج هذا الزمان لا يُلبون، وأغلب الذين يُلبون لا يجهرون بالتلبية، ولا يرفعون بها أصواتهم، فقد كان السلف على خلاف ذلك.

* **قال أبو حازم:** «كان أصحاب النبي ﷺ إذا أحرموا لم يبلغوا الرَّوْحاء حتى تُبَحَّ أصواتهم». لأنهم يعلمون أن ذلك مما يحبه الله عز وجل، لقوله ﷺ: «**أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي ومن معي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية**» [رواه أصحاب السنن وصححه الألباني]. وقوله ﷺ: «**أفضل الحج العجُّ والثجُّ**» [رواه الترمذي، وحسنه الألباني]. والعجُّ: رفع الصوت بالتلبية. والثجُّ: سيلان دماء الهدي والأضاحي.

عبادة السلف في الحج

* **ذكر** الإمام ابن رجب رحمه الله أن من أعظم خصال البرِّ في الحج: إقام الصلاة، فمن حجَّ من غير إقام الصلاة - لاسيما إن كان حجه تطوعاً - كان بمنزلة من سعى في ربح درهمٍ، وضيَّع رأس ماله وهو ألوفٌ كثيرة. وقد كان السلف يواظبون في الحج على نوافل الصلاة، وكان النبي ﷺ يواظب على صلاة النافلة على راحلته في أسفاره كلِّها ويوتر عليها.

* **فعن** عامر بن ربيعة رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يُصَلِّي السُّبحة بالليل في السفر على ظهر راحلته حيث توجهت. [متفق عليه] والسبحة: النافلة.

* **وقال** ابن عمر رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يُسَبِّحُ على الراحلة قِبَلَ أيِّ وجْهٍ توجَّه، ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة» [متفق عليه].

* **وكان** محمد بن واسع يصلي في طريق مكة ليله أجمع في محمله، يومئ إيماء، ويأمر حاديه أن يرفع صوته خلفه حتى يُشغل عنه الناس بسماع صوت الحادي، فلا يُتَفَطَّن له.

* **وحجَّ** مسروق فما نام إلا ساجداً.

* **وكان** المغيرة بن حكيم الصنعاني يحجُّ من اليمن ماشياً، وكان له وردٌ بالليل يقرأ فيه كل ليلةٍ ثلثَ القرآن، فيقف فيصلي حتىٰ يفرغَ من ورده، ثم يلحق بالركب متىٰ لَحِقَ، فربما لم يلحقْهم إلا في آخر النهار!!

* **قال** ابن رجب بعد أن ساق هذه الأخبار: فنحن ما نأمر إلا بالمحافظة علىٰ الصلاة في أوقاتها، ولو بالجمع بين الصلاتين المجموعتين في وقت إحداهما بالأرض، فإنه لا يُرَخَّصُ لأحدٍ أن يصلي صلاة الليل في النهار، ولا صلاة النهار في الليل، ولا أن يصلّي علىٰ ظهر راحلته المكتوبة.

حذر السلف من الرياء والمباهاة

* **ومما** يجب علىٰ الحاج اجتنابه، وبه يتمُّ برُّ حجِّه أن لا يقصد بحجه رياءً ولا سمعة ولا مباهاة ولا فخراً ولا خُيَلاء، ولا يقصد به إلا وجه الله سبحانه وتعالىٰ ورضوانه، ويتواضعُ في حجه ويستكين ويخشع لربه.

* **وقد** كان السلف - رحمهم الله - شديدي الحذر من أن يدخل عملهم شيء من الرياء أو حظوظ النفس؛ لأنهم يعلمون أن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه صواباً علىٰ سنة نبيه ﷺ. كما قال سبحانه في الحديث القدسي: «**من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» [رواه مسلم]، ولذلك لما قال رجل لابن عمر رضي الله عنهما: ما أكثر الحاج! قال له ابن عمر: ما أقلّهم! وقال شريح القاضي: الحاجُّ قليل، والركبان كثير، ما أكثر من يعمل الخير، ولكن ما أقلَّ الذين يريدون وجهه.

خليلي قطاع الفيافي إلى الحمى ... كثيرٌ وأما الواصلون قليلُ

وجوه عليها للقبول علامةٌ ... وليس على كل الوجوه قبولُ

* **قال** عمر بن الخطاب يوماً وهو بطريق مكة: تَشْعثون، وتغبُرون، وتَتْفُلون، وتَضْحون، لا تريدون بذلك شيئاً من عرض الدنيا، ما نعلم سفراً خيراً من هذا، يعني الحجّ!!

* **إخواني:** سبحان من جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمناً، يترددون إليه ولا يرون أنهم قَضَوْا منه وطرا.

* **لمّا** أضاف الله عز وجل ذلك البيت إلىٰ نفسه، ونسبه إليه بقوله عز وجل لخليله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، تعلقت قلوب المحبين ببيت محبوبهم، فكلما ذُكر لهم ذلك البيت الحرام حنّوا، وكلما تذكروا بُعدهم عنه أَنُّوا.

* **رأى** بعض الصالحين الحاجَّ في وقت خروجهم، فوقف يبكي ويقول: واضعفاه! ثم تنفس وقال: هذه حسرة من انقطع عن الوصول إلىٰ البيت، فكيف تكون حسرة من انقطع عن الوصول إلىٰ ربِّ البيت؟!

* **يحقُّ** لمن رأىٰ الواصلين وهو منقطع أن يقلق، ولمن شاهد السائرين إلىٰ ديار الأحبة وهو قاعد أن يحزن.

ألا قل لزوَّارِ دارِ الحبـــيب هنيئاً لكم في الجنانِ الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضاً فنحن عطاشٌ وأنتـم ورودُ

حال السلف في عرفات

* **أخي الحبيب:** كانت أحوال السلف في عرفات تتنوع، فمنهم من كان يغلب عليه الخوف والحياء، ومنهم من كان يتعلق بأذيال الرجاء، ومنهم من كان يغلب عليه الشوق والقلق، ولكنهم كانوا يتساوَوْن جميعاً في الذكر والدعاء والإقبال علىٰ الله ومناجاته والانطراح بين يديه.

* **وقف** مطرّف وبكر ابنا عبدالله بن الشخير رضي الله عنهما في الموقف، فقال مطرّف: اللهم لا تردّ أهل الموقف من أجلي!! وقال بكر: ما أشرفه من مقام وأرجاه لأهله، لولا أني فيهم!!

* **وقال** الفضيل لشعيب بن حرب بالموسم: إن كنتَ تظن أنه شهد الموقف أحدٌ شرٌّ مني ومنك فبئس ما ظننت!

* **وكان** أبو عبيدة الخواص يقول في الموقف: واشوقاه إلىٰ من يراني ولا أراه، وكان بعدما كَبُر يأخذ بلحيته ويقول: يا ربِّ، قد كَبرتُ فأعتقني، وكان ينشد

وهو واقف بعرفة:

سبحان من لو سجدنا بالعيون له ... على شبَا الشوك والمحمى من الإبر

لم نبلغ العُشْرَ من معشار نعمته ... ولا العُشير ولا عُشْراً من العشر

هو الرفيعُ فلا الأبصار تدركه ... سبحانه من مليك نافذ القدرِ

* **وكان** سفيان الثوريُّ ممن يقدم الرجاء في هذا اليوم، فقد قال ابن المبارك: جئت إلىٰ سفيان الثوري عشية عرفة، وهو جاثٍ علىٰ ركبتيه، وعيناه تَهْمُلان، فالتفت إليَّ فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذي يظنُّ أن الله لا يغفر لهم!

* **وروي** عن الفضيل أنه نظر إلىٰ نشيج الناسِ وبكائهم عشية عرفة، فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلىٰ رجلٍ فسألوه دانقاً ـ يعني سدس درهم ـ أكان يردُّهم؟ قالوا: لا. قال: والله للمغفرة عند الله، أهون من إجابة رجلٍ لهم بدانقٍ!!

وإني لأدعو الله أسأل عفوه ... وأعلم أن الله يعفو ويغفر

حال السلف في الطواف

* **قال** عبدالمجيد بن أبي روَّاد: كانوا يطوفون بالبيت خاشعين ذاكرين، كأن علىٰ رءوسهم الطير وقع، يستبين لمن رآهم أنهم في نسكٍ وعبادة.

* **وكان** طاوس ـ رحمه الله ـ ممن يُرىٰ فيه ذلك النعت.

* **ومن العبادات** التي تُطلب في حال الطواف: غضُّ البصر لوجود النساء مع الرجال أثناء الطواف. قال ابن الجوزي: «اعلم أن غضّ البصر عن الحرام واجب، ولَكَم جلب إطلاقه من آفة، وخصوصاً في زمن الإحرام وكشف النساء وجوههن، فينبغي لمن يتقي الله عز وجل أن يزجر هواه في مثل ذلك المقام، تعظيماً للمقصود، وقد فسد خلقٌ كثيرٌ بإطلاق أبصارهم هنالك».

* **وينبغي** علىٰ النساء ألا يكشفن وجوههن أثناء الطواف وإن كنَّ محرمات، فقد قالت عائشة رضي الله

عنهـا: «كان الركبان يمرُّون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات، فإذا حاذَوْنا سدلتْ إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه».

* **وينبغي** على النساء كذلك تركُ مزاحمة الرجال في الطواف، واختيار الأوقات التي يخفُّ فيها الزحام، كما كانت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تفعل، فقد كانت تطوف في ناحية منفردة من البيت بعيدة عن الرجال، وكانت لا تقبل الحجر ولا تستلمه ولا تستلم الركن اليماني إن كان ثمة زحام.

* **ولما** قالت لها مولاتها: يا أم المؤمنين! طفت بالبيت سبعاً، واستلمت الركن مرتين أو ثلاثاً. قالت عائشة: لا آجرك الله.. لا آجرك الله.. تدافعين الرجال؟! ألا كبّرت ومررتِ!

* **قال ابن المحب الطبري**: ومن المنكر الفاحش ما تفعله الآن نسوان مكة وغيرهن في تلك البقعة ليالي الجُمع وغيرها من الاختلاط بالرجال، ومزاحمتهن لهنّ في تلك الحال، مع تزيُّنهن لذلك بأنواع الزينة، واشتغالهن عند إتيانه بما يوجب الروائح العطرة، فيشوِّشن بذلك على متورِّعي الطائفين، ويجتلبن بسببه استدعاء نظر الناظرين، وربما طافت إحداهن بل أكثرهن بغير جوربين، ويشقُّ على الناس الاحترازُ من ملامستهن في بعض الأحايين، وهذه مفسدةٌ عظيمة عمَّت بها البلوى، وتواطأ الناس على عدم إنكارها.

* **فينبغي** للعبد أن ينزِّه طوافه عن كل ما يوجب شيئاً من ذلك، ولا يأمن عقوبة سوء الأدب وفحش المخالفة هنالك.

* **قيل** إن إسافاً ونائلة، الصنمين المعروفين كانا رجلاً وامرأة من جرهم، دخلا الكعبة، فقبَّل أحدهما الآخر فمُسخا حجرين مكانهما.

مشهدُ الحجيج

قال ابن القيم رحمه الله:

أما والذي حج المحبون بيته ... ولبُّوا له عند المهلِّ وأحرموا

وقد كشفوا تلك الرءوس تواضعاً ... لعزة من تعنوا الوجوه وتُسلمُ

يُهلُّون بالبيداء لبيك ربَّنا ... لك الملك والحمد الذي أنت تعلمُ

دعاهم فلبوه رضاً ومحبة ... فلما دعوه كان أقرب منهم

تراهم على الأنضاء شُعثاً رءوسهم ... وغُبراً وهم فيها أسر وأنعم

وقد فارقوا الأوطان والأهل رغبة ... ولم تُثْنِهم لذَّاتهم والتنعُّم

يسيرون من أقطارها وفجاجها ... رجالاً وركباناً ولله أسلموا

ولما رأت أبصارهم بيته الذي ... قلوبُ الورى شوقاً إليه تضرَّمُ

كأنهم لم يَنْصَبوا قطُّ قبله ... لأن شقاهم قد تَرَحَّلَ عنهمُ

فلله كم من عَبرةٍ مهراقةٍ ... وأخرى على آثارها لا تَقَدَّمُ

وقد شَرِقت عين المحبِّ بدمعها ... فينظُر من بين الدموع ويُسجمُ

وراحوا إلى التعريف يرجون رحمة ... ومغفرة ممن يجود ويكرم

فلله ذاك الموقفُ الأعظم الذي ... كموقفِ يوم العرض بل ذاك أعظمُ

ويدنو به الجبارُ جلَّ جلاله ... يُباهي بهم أملاكَه فهو أكرم

يقول عبادي قد أتوني محبةً ... وإني بهم برٌّ أجودُ وأكرم

فأشهدكم أني غفرت ذنوبهم ... وأعطيتُهم ما أمَّلوه وأنعمُ

فبُشراكمُ يا أهل ذا الموقفِ الذي ... به يغفرُ الله الذنوبَ ويرحم

فكم من عتيقٍ فيه كُمِّل عتقه ... وآخر يَسْتسعي وربُّك أكرمُ

وما رُئي الشيطان أغيظ في الورى ... وأحقر منه عندها وهو ألأمُ

وذاك لأمر قد رآه فغاظه ... فأقبل يحثو الترب غيظاً ويلطمُ

لما عاينت عيناه من رحمة أتت ... ومغفرة من عند ذي العرش تُقسَمُ

بنى ما بنى حتى إذا ظن أنه ... تمكن من بنيانه فهو مُحكَمُ

أتى الله بُنيانا له من أساسه ... فخرَّ عليه ساقطا يتهدَّمُ

وكم قدر ما يعلو البناء وينتهي ... إذا كان يبنيه وذو العرش يهدمُ

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

***